

الخطأ...

قصته بقلم عبد الله خيرت

صلة فكلها فروع شجرة واحدة» وأعجبه هذا التشبيه الموفق فوضع تحت هذه الجملة خطا بالقلم الأحمر ليقراها بطريقة معينة . ومرت عيناه والقلم الأحمر في يده على الجمل التي كتبها فوضع تحت بعضها خطوطا كذلك «... وهو نصف الدين ينطق بذلك الاثر ويدل الخبر...» ولكنه توقف... فقد أصبح منذ الان هو الاعزب الوحيد بين زملائه ، واذ يتذكر انه سيقرا هذا الكلام امام اناس يعرفونه ويعرفون رأيه في الزواج والراة يحس بالقلق... ربما يصيح احدهم وهو يضحك «اعد يا استاذ» او يهمس الناظر في اذن المدير - وهذه هي المصيبة - لجرد الترتبة فقط «مع انه يا سعادة البك مش متزوج... تصور سيادتكم التناقض العجيب»... واذا حدث هذا فماذا سيقول عنه المدير وقتها؟؟ غير ان الاستاذ حسن استمر يكتب وقد استبدت به رغبة قوية ليوضح رأيه من جديد ويجيب على تساؤل البعض «لماذا يقف بعض الناس من الزواج موقفا سلبيا» وهكذا ظل يكتب ويراجع ويشطب ويضع الخطوط بالقلم الأحمر تحت الجمل ، ولدهشته وجد ان الوقت يجري والساعة تقترب من الثامنة ولا زال عنده كلام كثير فغتم الموضوع وقام فارتدى ثيابه ببطء شديد وقبل ان يخرج نظر الى المرأة اكتر من خمس مرات ليتأكد من ان ربطة عنقه لن تقاتله وتميل الى الشمال فتبدو رقبته مائلة معها...

وحين استطاع ان يجد لنفسه مكانا في الايوبيس المزدهم بعيدا عن اكتاف الصاعدين والهابطين واحذيتهم ، بدأ يفكر لأول مرة في الحفل الذي هو ذاهب اليه... انه لم يحضر حفلات زواج منذ فرح اخته فكيف يتصرف الليلة؟ هل سيبدأ العروس بالتحية او يسلم على امها ايضا... ان اكثر ما يضايقه ويشعره بأنه مقيد ان يجد نفسه بين غرباء لا يعرفونه ، ومن اجل ذلك كان يعتذر دائما عن حضور حفلات كهذه ولولا انه وعد وعرف الجميع انه سوف يلقي كلمة لما جاء الليلة ابدا . وبعد دقائق كان الاستاذ حسن يصعد السلم الواسع المضيء ، واشتد حيرته والاطفال الصغار يتواثبون من حوله والضحكات الكثيرة تصم اذنيه حتى تصور ان كل الحاضرين سيصمتون فجأة عندما يدخل ويحلقون فيه... ووقف لحظة حائرا لا يدري ماذا يفعل... وضايقه ان احدا لم يلتفت اليه ، وتأمل الوجوه الضاحكة فلم يتعرف على احدها ولولا ان فتحي رآه مصادفة فجري نحوه واحتضنه ضاحكا وهو يقول «عقبالك يا استاذ حسن» لكان من المحتمل ان يظل واقفا هكذا مدة طويلة...

وهذات نفسه قليلا عندما جلس مع زملائه فرأى المقعد الفخم الذي اعد للمدير... ولم يتحدث معهم كثيرا... قالوا له وهم يضحكون «عقبالك» ورد عليهم دون ان يضحك «متشكر»... وكان يلتفت للحظات بعد ان بدأت الحفلة الى العروسين فيخيل اليه ان كل شيء فيها يضحك ، ولم يجد من نفسه رغبة لاتباع الراقصة التي أخذت تحرك كل اجزاء جسمها بعنف كأنها تمسك كل جزء ونهزه بيدها ولم يضحك - بكيفية الحاضرين - على الفكاهات السخيفة التي القاها طالب خائب يعرفه .

ولا بد ان احدا كان ينتظر المدير في الشارع ، فقبل ان يدخل كانت الراقصة قد اختفت والضجة قد هدأت وتطلع الجالسون حتى الاطفال الصغار ناحية الباب بترقب... ولم تتمالك ام العروس نفسها من الفرح حين رأت الضيف الوقور فاطلقت زغرودة طويلة وبعد ان جلس المدير ونزل فتحي فسلم عليه التفت حوله كل الاقارب واخذوا

جلس الاستاذ حسن يرتشف بلذة القهوة التسي صنعها بنفسه وتهدأ ليكتب كلمة وعد بالقائها فسي فرح زميله «فتحي» الليلة... وامسك القلم وهو يتنهد بارتياح . لو ان احد الزملاء زاره الان لكان اول ما سيقوله له «يا سلام على الهدوء الجميل... هو ده صحيح البيت المثالي مش نسيب المدرسة نلاقي الستات والعيال عاملين مدرسة ثانية... لو الواحد يا اخي يبص يلاقيه زيك»...

هذه هي الحقيقة... وقد احس بذلك احساسا قويا وعرف نعمة الهدوء الذي يعيش فيه عندما زار اخته هذا الاسبوع لانها وضعت مولودها الرابع... لقد كان اولدها يفسدون كل شيء ويصعدون فوق المقاعد باحذيتهم ويصرخون بدون سبب ولم يفلح ابوهم في اسكاتهم ابدا حتى قال الاستاذ حسن لنفسه وهو يتململ على مقعده «ده مش بيت... ده سيرك» ولا زالت امه هناك الى الان... انه يعجب لها كيف تستطيع تحمل كل هذه الضجة وهي التي ربما تظل طول اليوم فلا يتبادل معها غير كلمات قصيرة وتضيق اشهد الضيق اذا رات ذرة تراب على مقعد...

لو انه كان يعيش مثل اخته وزوجها فهل كان سيجد ذلك التقدير والاحترام من المفتشين؟ وهل كان الناظر سيعامله كما يعامله الان؟... او كانت ستتاح له الفرصة ليقرا ويعرف معلومات عميقة متشعبة عن كل شيء؟ كان بالتأكيد سيصبح مثل بقية الزملاء يذهب الى المدرسة مرهقا وثيابه مكرمشة كانه ينام فيها وعلى كراسي التحضير بقع الحبر والزيت ثم يشكو لكل من يلقاه الظلم الواقع عليه وان الناظر يعمل على نقله الى الصعيد...

الساعة ما زالت الثالثة... وامامه وقت كبير ويكفي ان يبدأ فقط فيجد الكلمات تجري كأنها تكتب نفسها... ولكنه قبل ان يبدأ تذكر امرا مهما رضى عن نفسه كل الرضى لانه تذكره في الوقت المناسب... اليس من الجائز ان يحضر مدير المنطقة حفل الليلة؟ لقد ارسل له فتحي بطاقة دعوة بالبريد ثم ذهب الى بيته وترك هناك بطاقة اخرى وهو كذلك يقيم في نفس الحي ويدي وذا ظاهرا نحو الجميع... وقال الاستاذ حسن لنفسه ان هذا ليس امرا صعبا بالنسبة له ، فكلم الفتي خطبا امام مديرين ، وفي الوقت الذي كان الزملاء فيه يكادون يختفون من فوق مقاعدهم حين يطلب الناظر من احدهم ان يلقي كلمة ، كان هو يقوم بشجاعة فيتحدث ، فهل تلجج مرة او ارتبك؟

وامام هذا المدير نفسه القى منذ وقت قريب كلمة في عيد الام لا زال يحس بالفرح يفمره كلما تذكرها ، ويعجب من نفسه كيف استطاع ان يتكلم بمهارة ، وان يتحدث عن اشياء لا تخطر ببال احسد ، وكيف ربط بذكاء بين الام وقولهم «أم رأسه» حتى لقد بدت الدهشة واضحة على وجه المدير وصفق له يومها ست تصنيفات كاملة ميزتها اذنه من بين التصنيف المتشابه والصحيح ورغم بعد المسافة بينهما...

وطارت من راسه كل الافكار التي كان قد اعددها وبدأ يفكر من جديد فهو لا يعرف ان كانت ستتاح له فرصة اخرى قريبة فيثبت لرجل كالدير ان في راسه شيئا اخر يختلف كل الاختلاف عن تنظيم الجداول وتربط العلاوات الدورية واللغو الفارغ حول الكادر الجديد والقديم...

وحين كتب «سيدي المدير الوقور» ثبت نظارته السمكية على عينيه وزم شفثيه بعزم وارسم على وجهه ذلك الاهتمام الذي يدخل به كل فصول المدرسة... «... والزواج والازدواج والامتزاج ، هذه الكلمات قريبة في نطقها كما ترون ولكنها في معانيها اشد قربا واثق

كلهم يحيونه بصوت واحد « شرفتنا يا بيه .. ربنا يعني مقامك .. اشرفت الانوار .. عقبال الانجال .. »

ولم ينتبه الاستاذ حسن عندما قام ليلقي كلمته الى ان المدير كان قد اخذ طريقه نحو الباب واخذ معه كل الهدوء الذي ساد لغتسرة قصيرة .. ولما كان الاستاذ حسن قد اصبح امام الميكرفون ورأى انظار الناس قد بدأت تتجه اليه فقد اضطر ان يتكلم ولكن بفتور واضح ... كانه يقص على الطلبة تاريخ بناء القلعة او يعرفهم طول السور الذي بني حولها .. اذ انه عرف ان احدا لن يفهم كلامه ، فقد خرج المدير - اناى لواحد من هؤلاء حتى ولو كان الناظر نفسه ان يدرك عمق ما يقول ؟ - ومرت الجمل التي وضع تحتها خطا فاترة ضعيفة كبقية الجمل الاخرى . لم يكن هناك ما يثير حماسه في الحقيقة بعد ان خرج المدير .. وانتظرت ام العروس ان تسمع منه كلمة واحدة تعرف منها انسه يتحدث عن فرج ابتها او تسمعه يتحدث عن فتحي ويقول انه وفق الى عروس من بيت طيب كما كانت هي تسمع الناس يقولون في الافراح .. واخيرا قالت لاحدى الجالسات بجوارها بصوت لم تستطع ان تجعله همسا :

- « اراجل ابو نضاره ده بيقول ايه .. ايه السوبرمان اللي بيتركلم عنه ده .. والله ما انا عارفه .. ما حد يقول له يسكت خليه يفتوا » .

وكان الاستاذ حسن قد شعر فعلا ان الناس قد انصرفوا عنه وكان يريد ان يسكت .. غير انه لم يكن باستطاعته ان يقطع الكلمة من عنقه فاستمر يتكلم وهو يخشى انه يؤدي رغما عنه عملا بغيضا الى نفسه . وحوالي الساعة العاشرة كان قد سئم من كلمة « احسنتم » التي كررها بعض الحاضرين بل انه كره من قلبه كل من قال له هذه الكلمة . واحتى في هذه اللحظة ان اصابع سوداء ضخمة تعبت في راسه وتكتم نفسه فاستاذن من زميله واسرع بالخروج .. وعندما احتواه الشارع التواضع لم يكن يصدق انه نجا من هذا السجن الخائق .. وعلى غير عادته لم يجد عنده رغبة في الذهاب الى البيت وقال لنفسه ان اتواصلات مزدحمة ، ولو انه ركب الان لكان من الجائر ان يختنق مرة اخرى فيضى يجبر قدميه بدون هدف ..

وتذكر - دون ان يعرف لماذا - موضوع زواجه الذي كاد يتم منذ خمسة عشر عاما .. تذكر كل شيء كانه يحدث امامه الان وخيل اليه انه يراها عن قرب واخذ يقارن بينها وبين عروس فتحي التي رآها ليلة .. كانت « هي » اجمل منها بكثير رغم انه لم يرها مرة وعلى وجهها كل تلك المساحيق .. ولكنه لم يكن مخطئا حين تركها بل كانت هي المخطئة .. لقد كانا متفاهمين تفاهما تاما وفي اللحظات القصار التي اختلفتاها وحدهما وجدا من نفسيهما الجرة ليتحدثا عن الاطفال وعندها واسمائهما .. وهو لا يذكر - حين كان يزور اسرتها مع امه ذات مرة - من الذي اثار الحديث وقتها عن نابليون ولكنه يعرف انه تحدث في هذا الموضوع بالتفصيل وناقش آراء المؤرخين في هذه الشخصية العجيبة وتكلمت هي .. تكلمت اكثر منه في الحقيقة وعندما اراد ان يزد عليها قالت بهدوء وهي تضحك « تسمح يا استاذ حسن .. مع انك استاذ تاريخ .. الا ان حضرتك ما عندكش فكرة قوية عن الموضوع ده .. مش بيتقولوا باب النجار ؟؟ » وضحكوا كلهم على كلامها حتى امه ضحكوا معهم ، اما هو فظل صامتا طول الوقت فقد كانت كلامها هذه

بالنسبة اليه اهانة لا ينساها .. كيف يعيش مع فتاة كهذه .. وامام الناس تسخر منه هكذا ببساطة .. وقبل ان يهبط السلم لينزلها قال لاه .. « مستحيل » ..

وانتبه الاستاذ حسن الى نفسه ، هل سيظل يتسكع في الشوارع طول الليل ؟ يجب ان يذهب الى البيت .

وعندما ادار المفتاح في الباب ، وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ، بدأ يكتشف بوضوح وهو يكاد يسمع دقات قلبه في هذا الصمت المؤلم لماذا هو حزين .

ان ما كان يسمعه دائما من انه استاذ يعمل بضمير وتقدير « جيد جدا » الذي كان يحصل عليه في العام اكثر من مرة وقرءاته المشبعة . كل هذا بدا له الان وهما باطلا وعيبا فارغا لا غناء فيه .. وزملاؤه لم يصدقوا ابدا ما كان يقوله عن المرأة والزواج بل انهم كانوا يسخرون منه بينهم وبين انفسهم . وعندما كانوا يقولون له الليلة عقبالك كانت الكلمة تخرج كأنها تعزيه كأنهم يقولون له انت « مسكين » ولعلمهم الان بعد ان انتهت الحفلة قد جلسوا مع زوجاتهم وتقاربت منهن الرؤوس واخذوا يتحدثوا عنه بأسى .. لماذا عاش في الخطأ كل هذه السنين ؟؟ كلهم سبقوه .. هذه هي الحقيقة حتى اخته التي تصفره بسنوات كثيرة .

ولم يكن قد خلع ثيابه بعد فوقف يحرق في المرأة ويتحسس وجهه بيده : ماذا يحدث لو انه اراد ان يتزوج الان ؟ نعم ماذا يحدث .. هل سيقول عنه زملاؤه انه وقع .. انه لا يعنيه كلامهم فهو يريد اولادا يفرح بهم ..

نعم سيتزوج وينجب بنتا اجمل من بنت الناظر ومن اولاد اخته كلهم .. يا له من منظر لن ينساها ابدا حين كان زملاؤه يخفصون رؤوسهم حتى تكاد تصل الى الارض ليسموا همس اطفالهم ..

وفتح للباب ليفضي الى امه برغبته ويطلب منها ان تختار له عروسا وهو يعرف انها لن تحتفل هذه الفرحة ، فكثيرا ما كانت تقول له انها تريد ان تفرح به قبل ان تموت وهو يصم اذنيه عن كلامها .. ولكنه تذكر ان امه ليست بالبيت فجلس على طرف المقعد يفكر .. لم يكن يصدق انه سوف يصبح شخصا اخر .. هل من المعقول ان تختفي تلك الصرامة التي تبدو دائما على وجهه والتي كان يفشل كل مرة في تجنبها حين يسمع الطلبة يهسون لبعضهم عندما يدخل عليهم الفصل « ابو علي زعلان ليه ؟ » وكثيرا ما كانت تصل الى اذنيه كلمات غريبة « اصله ماعندوش ولاد .. ده لو كان مجوز كنت تلاقيه دايما يضحك » وكلمات اخرى .. افكار اطفال .. اطفال ...

ولكن الاستاذ حسن فاجاه شيء مزعج فقد انتصبت امام عينيه سنوات عمره الخمس والاربعون كأنها حاجز ضخيم يشوه كل جمال الدنيا ويضيق عليه سجن وحدته ويحطم كل الامال التي كان يعيشها الان .. يتزوج ؟؟ عليه ان يرضى بعانس في الاربعين وعندما يبلغ هو سن الخمسين سيكون ابنه الاول في سن الرابعة ، وهو لا يعرف كذلك اذا كان سيمكنه في هذه السن انجاب الاطفال . لقد ضاعت عليه الفرصة وانتهى الامر .. انه يعرف انه سيموت في الستين فقد منات والده وجده في هذه السن ولكن امامه سنوات طويلة كيف يعيشها وحده ؟؟ وبدت له الايام القادمة صحراء مظلمة مخيفة فتحررت شفتاه دون ان يدري « يا سلام .. دي حاجة تضايق جدا » ثم سكت فجأة وسال نفسه لماذا يتحدث بصوت مرتفع هكذا .. لقد اخطأ بذهابه الى الحفل .. ويجب الا يفكر في هذا الموضوع مرة اخرى .. هذا هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه .

وقام يخلع ثيابه ويرميها باهمال .. وغسل وجهه بالماء كما تعود ان يفعل كل ليلة .. ولكنه قبل ان يطفىء النور كان السؤال المحير يلح على ذهنه من جديد : كيف يمكنه ان يعيش الايام القادمة وحده .. كيف ؟؟ وسحب الفطاء على عينيه بشدة وظل يتقلب على السرير الواسع مدة طويلة وهو على ثقة بان احلامه ستكون مليئة بالاطفال .

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة

الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .